



ركن

الوافدين

إشراف: د. أحمد نهلة الصبحي*



علو الهمة في طلب العلم

أ.د. محمود توفيق^(١)

من الأدواء التي شاعت في كثير من طلاب العلم، في جامعاتنا ولا سيما طلاب الدراسات العليا فيها، أنه إذا ما لقيته كندية علمية في بحثه يهرع إلى أشياخه، يسألهم مُلِحاً، مُتَنَقِلاً من شيخ إلى شيخ، مُستجدياً جرائها عن سؤالي لم يجاهد في البحث عن جوابي، والتفكير فيه، يستهل قُل السؤالي أو يستعديه، وما شعر أن ذلك سُفِطَ قلزء عند من يسأله، ولا سيما إن كان الجواب قريباً بل على طرف انشام، فيوقن الشيخ أن ذلك المسائل ساقط الهمة، كل همة أن يحصل جواباً، لا أن يكتسب مهارة تعظيم الكد، والتمحاض الأسوار وفتح المغاليق وإزالة الأذى عن الطريق.

بانت، طلبة صناعة الدات القية التي لا تنكسر، والعزيمة التي لا تلين، والعزة التي تُثَقُّ أن تأنق، ولا تعطي - يانت هذه الطلبة مرغوباً عنها، بل مهرباً منها، ومن يُصر من الأشياخ على تحقيقها في طلاب العلم، فقدت جامعاتنا مائدة تخرجت علمية، لا صناعة عقول خية، ونفوس أيق، فإذا يحاملي تلك التوجات يصدق فيهم ما رواه الإمام مسلم في كتاب «فضائل الصحابة» من صحيحه يستند عن سالم عن ابن عمر «رضي الله عنهم» - قالت: قال رسول الله ﷺ: «تجدون الناس كزابل مثله لا يجد الرجل فيها راحة»، على الرغم من أن الرسالة الرئيسة لكل الجامعات، ولا سيما جامعة الأزهر «تسائط الحي» هي صناعة العلماء الذين يقرءون العباد لصناعة حياة عزيزة كريمة للأمة المسلمة، وللإنسانية جمعاء.

تهافتت الهمة في طلب العلم وغدمت هو الداء الربيل الذي تفس في أكثر جامعاتنا ومجاهدتنا، وكأنا نصلحنا معه، واسترحنا إلى مصاحبه، فخذعنا أنفسنا بأن هذا سمة العصر، وأن الناس أشبه بزمانهم، وكان زمانهم هو صانعهم، لا هم صانعهم، كلا، إنها كلمة عوراء، ما لهذا خلقنا.

(١) مستشار شيخ الأزهر لشؤون الوافدين، ورئيس مركز تعليم الطلاب الوافدين.

(٢) حضر حية ديار العلماء.



هو بحثنا أن يكون مطمحنا الفردوس الأعلى، حيث جوار الأنبياء وليس مجرد دخول الجنة، فذلك - على جلاله - طلب الدماء، أما النبلاء فلا يرضون إلا بالفردوس الأعلى لصحبة النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وتلك الصحبة هي من أجل النعم، بعد نعمة روية ربنا جل جلاله فيها، وطلب العلم وخدمته، ولا سيما العلم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ هو فردوس الله الأعلى في الدنيا عند أولي الألباب، ففيها صحبة ورثة الأنبياء العلماء الربانيون في أسفارهم أو مجالسهم، ولا يرغب عن ذلك إلا من شقة نفسه.

ولا يريد سيدنا رسول الله ﷺ بقوله: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَمَسْأَلُهُ الْفَرْدُوسُ» أن تكفي بالسؤال بالبيت، وإنما القصد إلى أن نهيئ أنفسنا لأن نكون أهلاً لأن يستجاب لنا إذا ما سألنا الفردوس الأعلى: ﴿لَسْتَ بِمُحْسِنًا وَلَا مُؤْمِنًا بِمَا تَعْلَمُ وَتُخْشَى﴾ (البقرة: ١٨٦) فالقصد هنا إلى البحث على تحقيق السبب، وليس السؤال الأجرد من التهيؤ للاستجابة للسؤال، والتعرض لشهادات الله تعالى، وهو من باب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢) أي اتحلوا الأسباب التي تحقق لكم الامتثال إلا وأنتم مسلمون، فمن اتخذ الأسباب صادقا حقيقاً حقق له الله سبحانه وبهيمته - مبادئها ﴿حَرَّاتٍ زَكَاةً وَسَاكِنًا﴾ (النبا: ٣٦).

ومن علو الهمة ألا نقيم نفسك مقام من ينتظر من شيخه أن يترين يديك مكثور العلم، وما عليك إلا أن تحمل، من فعل ذلك معك قلنا يعرملك لذة التفكير، والبحث عن الخبيء، شيخك الحق ومذاهبك وجللا وقد شئت عن طوق «الثنقيين» إنما يكفي بأن يجهلك على مكان الخبيء: «لنطلب أمت بنفسك، وعلى موضع الدين» لتبحث عنه فتخرج، ويفتح لك الطريق إلى المطلوب: لتسلكه، ويضع لك القاعدة لتبني عليها.

صانع الرجال يعلمهم كيف ينحرون من الجبال قصورا، ويفجرون من الصخور أنهارا، علو همة البحري هي طلب العلم،

ومما هو جدير بأمته والاهتمام بها فيه من الحشنيات ما كان من شأن الشاعر البحري: الوليد بن عبيد بن يحيى بن عبيد بن شمال أبي عباد الطائي (٢٠٦-٢٨٣ هـ) مع أستاذه الشاعر علي بن الجهم بن بدر، أبي الحسن السامي الخراساني (ت ٢٤٩ هـ). يقول أبو بكر: محمد بن يحيى بن عبد الله الصولي (ت ٣٣٥ هـ)، روى عن عبد الله بن الحسين: «قال لي البحري: دعاني علي بن الجهم، فمضيت إليه، فأفضنا في أشعار المحدثين



إلى أن ذكرنا أشجع السلمي^(٣) فقال لي: «إنه يخطئ» وأعادها مرات ولم أتهمها، وأنت أن أسأله عن معناها، فلما انتصرت فكرت في الكلمة، ونظرت في شعر «أشجع السلمي»، فإذا هو ربما مرت له الأبيات مفسولة ليس فيها بيت رائع، فإذا هو يريد هذا بعينه، أنه يعمل الأبيات، فلا يصيب فيها بيت نادر، كما أن الرامي إذا رمى برشقة، فلم يصيب فيه شيء، قيل: «أخطأ»^(٤).

تبصّر حال البحري مع أستاذه علي بن الجهم، لم يفهم مقائمه على الرغم من تكرار العلي لها، لفتها لها، ولم يشأ البحري أن يطلب من شيخه تفسيراً استعجالياً للمفهمة، إراحةً لنفسه، وكان لو سأل لأجاب العلي بن الجهم، ولكنه البحري، لم يشأ إلا أن يطعم من عمل عقله، ألا تسمع قول البحري: «وأنت أن أسأله عن معناها؟» ألا تستشعر ما في قوله: «أنت؟» هل لك أن تجعلها من عمد شائك مع شيخك؟ تألف أن تسأل من قبل أن تستخرج جهدك بحثاً وتفتيحاً وتفكيراً، وترتقاً إلى الله - تعالى - أن يمدك بعونه، هل لك أن تفعل؟

وتبصّر ما كان منه - أيضاً - يقول: «فلما انتصرت، فكرت فيها» لم يكتب بهذا ليهرع إلى أستاذه يعتذر إليه أنه لم يوفق في فقه ما قاله وكرره، كلا، كما أنف أن يسأله عن مقصده من مقائمه، أحسن الظن بأستاذه، وعلم أنه لا يقولها، ويكررها: «إنه كان يخطئ» إلا من بعد تفرّس حكيم محيط بشعر أشجع السلمي، ليقينه أن أستاذه ما كان ليقم نفسه مقاماً لا يكون فيه صادقاً في الحكم على شاعره، فإن لديهم مهابة من أن يظلموا أو يظلموا في الحكومة البيانية، لما يعلمون من عظيم قدر هذه الصفة التي امتن الله - تعالى - بها على الإنسان في طليعة سورة «الرحمن».

لم يكتب البحري بأن يفكر في مقالة أستاذه في أشجع السلمي، ولكنه اقتدى بأستاذه الذي ما قال قائمه فيه إلا على بصيرة، فلم لا يسعى هو لأن يصير هذه القالة في واقع شعر أشجع السلمي، يقول: «ونظرت في شعر أشجع، فإذا هو ربما مرت له الأبيات مفسولة ليس فيها بيت رائع».

(٣) هو أبو الرئيد أشجع بن عمرو السلمي من بني سليم من قبيل حيلان، ات ١٩٥ هـ، ولد باليمامة ولشأ في البصرة، وانطلق إلى الرقة وانظر ببغداد، ملج الرئيد والبرصكف، وانقطع إلى جعفر عذاسة وأميلك مدحد، وورثه الرئيد وأصبه مدحد، وتقدم هذه وأثرت حاله في أيامه، انظر ترجمته في: «طبقات الشعراء» لعبد الله بن محمد بن المعتز العباسي، ات ١٩٦ هـ، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف - القاهرة، ط ٣، ص ١٥٠، ومقرات الوفيات، لمحمد بن شاذان، أحمد بن عبد الرحمن، ات ٧٦٤ هـ، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ط ١، ص ١٩٧٣، م ١/١٩٦، و«الأعلام» للزركلي، ٢٢١/١.

(٤) «أخطأ» البحري، لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي، ات ٣٣٥ هـ، تحقيق: صلاح الأستر - مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، عام ١٣٧٨ هـ، ص ١٧٩، و«ألمح أبي تمام»، لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي، ات ٣٣٥ هـ، تحقيق: خليل محمود عسكرة، ومحمد عبد قزاق، ونظير الإسلام الهندي، تقديم: أحمد أمين، المكتبة التجارية للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، ات ٦٣، و«الموسم في ماخنة العلماء على الشعراء»، لأبي عبد الله محمد بن عمرو بن أبي العباس، ات ٣٨٤ هـ، علي به شبيب الدين الخطيب، المكتبة السلفية - القاهرة، ط ١، عام ١٣٨٥ هـ، ص ٢٦٦، و«العمدة في محاسن الشعر وأدبه»، لأبي علي النعمان بن زهير النير، ات ٤٦٢ هـ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط ٥، ١٤٠١ هـ/١/٢٠٥.



تَبَصَّرَ قَوْلُهُ: «نَظَرْتُ فِي شَعْرِهِ، أَتَرَاكَ تُبَصِّرُ مَا تُهْدِيكَ إِلَيْهِ؟» فِي؟ ثُمَّ أَتَرَكَ تَشْهَدُهُ وَهُوَ يَنْظُرُ فِي شَعْرِهِ؟ مُكَيِّدًا عَلَيْهِ لَا يَلْزَمُ عَلَى خَيْرٍ؟ أَلَمْ يَقُلْ: «فِي شَعْرِهِ» لِذَلِكَ عَلَى اسْتِقْرَاحِ النَّظَرِ لَيْدًا، جَعَلَ شَعْرَهُ طَرَفًا مُحِيطًا مُحَدِّثًا يَنْظُرُهُ مَأْسُورًا فِيهِ فَلَيْسَ ثُمَّ طَلَبَ تَعْرِيفَهُ أَنْ يُجَاوِزَهُ حَتَّى يَبْلُغَ الْحَقِيقَةَ فِي مَقَالَةِ أَسَاتِذِهِ، لَمْ يَكْتَفِ بِوَاحِدَةٍ يَجِدُهَا فِي شَعْرِهِ لَعَلَّمَهُ أَنَّ عَظَمَ الشَّعْرَاءِ قَدْ يَكُونُ مِنْهُمْ ذَلِكَ، فَلَا يَسْتَقِيمُ أَنْ يَوْصَفَ بِهَا لَوَاحِدَةٌ أَوْ ثَنَتَيْنِ.

أَرَأَيْتَ إِلَى الْحَيَاطَةِ وَالْمُصَلَّةِ؟ أَوْ لَكَ بِخَاطَةِ عَنِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ أَنْ تَتَخَلَّقَ بِهَا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ؟ أَرَأَيْتَ إِلَى عُلُوِّ الْهَمَةِ فِي طَلَبِ الْحَسَنِيِّ؟ أَلْتَتَخَلَّعُهَا عِبَادَةً تُتَرَاكَفُ بِهَا إِلَى رَيْكَ سَبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ؟ اسْتَفْرَأَ الْبَحْثِي شَعْرَ أَشْجَعِ الْمُسْلِمِي فَأَنْتَهَى بِهِ نَقَادَ بَصِيرَتِهِ وَتَغَوَّرَهَا وَإِسْخَاطَهَا فِي شَعْرِ أَشْجَعِ إِلَى أَنَّهُ أَرَبِمَا مَرَّتْ لَهُ الْآيَاتُ مَفْسُولَةٌ لَيْسَ فِيهَا بَيْتٌ رَافِعٌ، كُنْطَلُكَ أَنْتَهَى بِهِ الْبَحْثُ وَالنَّظَرُ، فَطَعْمٌ مِنْ عَمَلِ حَقْلِهِ وَحَقَّقَهُ، وَأُتِفَقَ أَنْ يَكُونَ عَلَى خَيْرِ مَا لَدَتْهُ، فَلَيْسَ بِكَ بَيْتُكَ، وَأَلَيْسَ بِكَ حَقْلُكَ، مَا كُنْتَ وَغَوَّرًا فِي أَنْ تَكُونَ مِنَ الْبَلَاءِ، احْرَصِ عَلَى مَا يَفْعَلُكَ وَاسْتَعِمْ بِأَلْكَ وَلَا تَعْجِزْ.

حَقٌّ عَلَى كُلِّ جَامِعَةٍ أَنْ تُظْهَرَ حُرْمَتُهَا مِنْ رُكْنٍ مَسَاقَطِي الْهَمَةِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَخَفِئَتُهُ، فَعَلِمَ تَوَكَّرَ الْأُمَّةَ وَيَسْتَدِلُّ أَهْلَهَا وَتَخْتَصِبُ أَرْضَهَا وَعَرَضُهَا وَحَقٌّ عَلَيْهَا أَنْ تَعْمَلَ جَاهِدَةً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ «عُلُوَّ الْهَمَةِ» فِي طَلَبِ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا سِوَا طَلَبِ الْعِلْمِ هُوَ سَمَتْ مَسْوِيَّهَا جَمِيعًا، كُلُّهُمْ فِي مِيدَانِ التَّنَافُسِ فِي الْحَسَنِيِّ مَجَلًّا لَا مَصْنُوعًا.

سَأَلَ طَرِيبَ شَيْخِهِ: حَدَّثَنَا شَيْخُنَا عَمَّا يَكُونُ لَنَا فِي الْجَنَّةِ مِنْ نَعِيمٍ مَأْكَلٍ وَشَرِبٍ وَحَسَنٍ وَمُنِيرٍ، فَسَكَتَ الشَّيْخُ، وَكَأَنَّهُ قَدْ بَاغَتْهُ سَهَامُ خِيبةِ الْأَمَلِ فِي طَرِيبِهِ، ثُمَّ قَالَهَا: «فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَفِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ» فَكَانَ ذَلِكَ أَوْجَزَ وَأَنْجَزَ بَاغَتْ عَلَى عُلُوِّ الْهَمَةِ، قَهْلٌ مِنْ مَسَاعٍ إِلَى لُقْيَا مِيدَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْفَرْدَوْسِ الْأَعْلَى؟